التطور الدلالي للألفاظ الدالة على مراتب الحب

د. عبدالكريم مصلح البحلة(*)

يشتمل التراث الأدبي العربي ، ولا سيما الغزلي منه على كثير من الكلمات التي تدل على الحب ، فغالباً ما تفسر الكلمات (الهوى ، والجوى ، والعشق ، والكلف واللوعة ...) بالحب ، و الحقيقة غير ذلك ، فكل لفظ من تلك الألفاظ يدل على مرتبة من مراتب الحب ، ودلالته تختلف عن دلالات الألفاظ الأخر ، وقد أشار أصحاب المعجمات اللغوية إلى المعاني الدقيقة لكل لفظ من هذه الألفاظ حين يكون دالاً على الحب . وهذا يعني أن لهذه الألفاظ دلالات أخر – كما هو حال الألفاظ العربية كلها – وما يحدد الدلالة المطلوبة هو السياق الذي يرد فيه هذا اللفظ أو ذاك ، فضلاً عن الصيغ الصرفية والحركات التي تتعاوره .

وإذا أنعمنا النظر في المعجمات العربية لرأينا أن الجذور اللغوية للألفاظ الدالة على مراتب الحب تحمل عدداً من الدلالات ، قد تكون في بعض الجذور نقيضاً للحب ، وفي بعضها الآخر تدل على الأمراض والأسقام التي قد تصيب الإنسان أو الحيوان .وهذا يعني أن دلالة هذه الألفاظ على الحب ودرجاته كانت نتيجة لتطور دلالي حدث لتلك الألفاظ، إما عن طريق المجاز أو عن طريق الاستعارة . ومما يؤخذ على أصحاب المعجمات اللغوية ، ولا سيما المتأخرون – أنهم لم يركزوا على التطور الدلالي للألفاظ ، إذ لم يبدؤوا بذكر الدلالة الحسية للفظ ، ثم يذكرون الدلالات المعنوية التي نقلت منها ،

(*) أستاذ اللغة العربية المساعد ، كلية الآداب .

ويبينون العلاقة الموجبة لذلك النقل .وسأقوم في هذا البحث – مستعيناً بالله – بتوضيح التطور الدلالي للألفاظ الدالة على مراتب الحب ، اعتماداً على الحقيقة المعروفة أن الدلالة الحسية تسبق الدلالة المعنوية ، وسأقصر هذا البحث على الألفاظ التي ذكرها أبو منصور الثعالبي في كتابه (فقه اللغة وأسرار العربية) إذ قال : " أول مراتب الحب الهوى . ثم العلاقة ، وهي الحب اللازم للقلب . ثم الكلف ، وهو شدة الحب ثم العشق ، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب، ثم الشعف ، وهو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها ، وكذلك اللوعة واللاعج فإن تلك حرقة الهوى ، وهذا هو الهوى المحرق . ثم الشغف ، وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونه ، وقد قرئتا جميعاً " شغفها حبا " . ثم الجوى ، وهو الهوى الباطن . ثم التيم ، وهو أن يستعبده الحب ، ومنه سمي " تيم الله " ، أي : عبد الله ، ومنه رجل متيم . ثم التبل ، وهو أن يسقمه الهوى ، ومنه رجل متبول . ثم التدليه ، وهو ذهاب العقل من الهوى ، ومنه رجل مدله . ثم الهيوم ، وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم " [1] فالألفاظ التي ذكرها الثعالبي في هذا النص أربعة عشر لفظاً ، وسأتناولها حسب ترتيبه لها ، بادئاً بلفظ الحب كونه أساس الموضوع .

حب

الحُبُّ في اللغة : نقيض البغض ، وهو الوداد والمحبة [2] . وقد ذكر اللغويون لهذا الجذر اللغوي دلالات أُخر منها ، الحبة و الحب ، يقال في الحنطة و الشعير ونحوهما و حبَّة القلب ، وهي سويداؤه ، شبهت بالحبة في الهيئة [3] . قال الأعشى : [4]

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبحت حبة قلبها وطحالها

وقد أرجع الراغب معنى الحب إلى هذا المعنى إذ قال : " وحببت فلاناً يقال في الأصل بمعنى أصبت حبة قلبه ، نحو شغفته ، وكبدته ، وفأدته . وأحببت فلاناً جعلت قلبي معرضاً لحبه ، لكن في التعارف وضع (محبوب) موضع (محب) واستعمل (حببت) أيضاً في موضع (أحببت) " [5] . ويبدو أن ابن فارس كان أكثر دقة فيما ذهب إليه في أصل هذا المعنى ، فأحد ثلاثة الأصول التي ذكرها لـ (الحاء والباء) دلالته على اللزوم والثبات . ورأى أن هذا المعنى مأخوذ من قولهم : (أحب البعير) أي برك ، فلم يتحرك من شدة المرض ، فيلزم الأرض حتى الموت [6] . قال أبو محمد الفقعسي : [7]

قمت إليه بالقفيل ضربا ضرب بعير السوء إذ أحبا

وقال أبو الفضل الكناني [8] :

محب كإحباب السقيم ومابه سوى أسف أن لا يرى من يُثاور

وقد أرجع ابن فارس معنى الحب إلى هذا الأصل ، قال : " وأما اللزوم فالحب والمحبة اشتقاقه من أحبه إذا لزمه ، والمحب : البعير الذي يحسر فيلزم مكانه ". [9] فلدلالة هذا اللفظ على الملازمة و الثبات استعمل للدلالة على الحب ، على سبيل الاستعارة ، لأن المحب ملازم لذكر محبوبه ، ولا يكاد ينساه . يقال : " أحبه فهو محب وهو محبوب على غير قياس ، هذا الأكثر وقد قيل محب على القياس . قال عنترة [10] .

ولقد نزلت فلا تظني غيره منى بمنزلة المحب المكرم

و حكى الأزهري عن الفراء قال : وحببته لغة . قال غيره : وكره بعضهم حببته ، وأنكر أن يكون هذا البيت لفصيح ، وهو قول عيلان بن شجاع النهشلي :

أحب أبا مروان من أجل تمره وأعلم أن الجار بالجار أرفق

فأقسم لولا تمره ما حببته ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

... وحكى سيبويه حببته بمعنى وأحببته " [11] . و الحب : الحبيب . مثل خدن وخدين . ويأتي الحبيب تارة بمعنى المُحب كقول الشاعر : [12]

أتهجر ليلى بالفراق حبيبها وما كان نفساً بالفراق تطيب

أي محبها . ويأتي تارة بمعنى المحبوبه كقول ابن الدمينة [13] :

وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى إلى وإن لم آته لحبيب

أي لمحبوب . والحب : المحبوب ، وكان زيد بن حارثة (رضي الله عنه) يدعى حب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقد فرق أبو هلال العسكري بين الحب و الود ذاكراً " أن الحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع و الحكمة جميعاً ، والود من جهة ميل الطباع فقط ، ألا ترى أنك تقول : أحب فلاناً وأوده ، وتقول : أحب الصلاة ، ولا تقول أود الصلاة " [14] .

هوى

الهوى في اللغة : الخلو والسقوط . وقد ذكر اللغويون أن أصله الهواء ، وهو ما بين الأرض والسماء ، سمي لخلوه [15] . قال امرؤ القيس [16] :

لا كالتي في هواء الجو طالبة ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

ويقال لكل خال هواء [17] . قال الله تعالى في الكافرين : " وأفئدتهم هواء " [18] . أي خالية لا تعي شيئاً [19] . يقال : هوى الشيء يهوي : سقط ، والهاوية : جهنم ، سميت بذلك لأن الكافر يهوي فيها ، أي يسقط ، و الهاوية كل مهواة [20] . والهوى ، مقصور ، هو الحب ، يقال : هوي فلان يهوى ، فهو هو ، وامرأة هوية [21] . وقد أرجع ابن فارس هذا المعنى إلى المعنيين السابقين جميعاً ؛ لأنه خال من كل خير ، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي " [22] . أو أنه من المهاواة ، وهي الملاجة ، كما ذكر أبو عمرو ، أو شدة السير كما ذكر أبو عبيدة قال ذو الرمة : [23]

فلم تستطع مي مها واتنا السُرى ولا ليل عيس في البُرين سوام

فإن كان من الملاجة ، فلأن كل واحد منهما يحب هوى صاحبه . وأما إن كان من شدة السير فلما في ذلك من ترامي الأبدان عند المسير [24] .

والهوى لا يكون محموداً إلا إذا نُعِت بالحسن ، وكان موافقاً للصواب ، أما إذا تُكلم به مطلقاً فلم يكن إلا مذموماً . كأن دلالته قد خصصت بمحبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه بما لا ينبغي ، ولذلك ذُمّ الهوى في القرآن الكريم قال تعالى في وصف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : (وما ينطق عن الهوى) [25] . وقال جل شأنه : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " [26] . وقال سبحانه وتعالى :" ونهى النفس عن الهوى" [27] أي نهى النفس عن شهواتها ، وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل [28] . وقد فرق أبو هلال العسكري بين الهوى و الشهوة بقوله " (أما الشهوة فهي توقان النفس وميل الطباع إلى المشتهى ، وليست من قبيل الإرادة ... الهوى لطف محل الشيء من النفس مع الميل إليه بما لا يتبغي ؛ ولذلك غلب على الهوى صفة الذم ، وقد يشتهى الإنسان الطعام و لايهوى الطعام " [29] .

علق

العَلَقَ في اللغة : إناطة الشيء بالشيء العالي ، ونشوبه به [30] . قال الخليل : " العلق ما يعلق به البكرة من القامة " [31] . فهو إذا اسم لشيء مادي محسوس ، قد يكون من خشب أو حديد ، أو نحو ذلك . وأرى أن هذه الدلالة هي الدلالة الأصلية لهذا اللفظ ، ثم توسعت هذه الدلالة ، إذ دلت على أمور حسية أخر قال جرير : [32]

إذا علقت مخالبه بقرن أصاب القلب أو هتك الحجابا

وأطلق على الطين الذي يعلق باليد علق ، وعلى النبت الذي يتعلق بالشجر العليق وعلى المرحلة الثانية من مراحل نمو الجنين في بطن الأم علقة ؛ لأنها تعلق في رحم الأم ، وعلى الدويبة الصغيرة التي تكون في الماء علقة ؛ لأنها تعلق في حلق الشارب سواء أكان إنساناً أم حيواناً ، ويقال له معلوق [33] . ثم نقلت هذه الدلالة الحسية إلى الدلالة المعنوية على سبيل الاستعارة ، إذ اطلقت على الناقة التي تألف ولد غيرها . قال أفنون التغلبي [34] :

وكيف ينفع ما تعطي العلوق به رئمان أنف إذا ما ضن باللبن

فانتقل التلازم الحسي بين الشيئين إلى تلازم معنوي . سواء أكان في الحب أو العداوة فقد ذكر اللغويون أن معنى علق فلان بفلان : خاصمه ، [35] لأن المتخاصمين يلازم كل منهما الآخر عند الخصومة . أما في الحب فإن المحب يعلق قلبه بمن يهواه ، وفي المثل (نظرة من ذي علق) أي ذي هوى قد علق قلبه بمن يهواه .قال الأعشى[36] :

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلقته فتاة ما يحاولها ومن بني عمها ميت بها وهل
وعلقتني أُخيرى ماتلائمني فاجمع الحب حباً كله تبل

وقال عنترة : [37]

علقتها عرضاً وأقتل قومها زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم

والعلوق من النساء : المحبة لزوجها ، ومعنى المعلقة في قوله تعالى: " فتذروها كالمعلقة "[38] هي التي لا تكون أيماً ولا ذات بعل [39] . ويقال : امرأة معلقة لا ذات زوج ولا مطلقة ، و يقال : لو عُلِّقها لما علقها [40] .

كلف

الكَلَف – كما يرى اللغويون – : الولوع بالشيء [41] . وأرى أن هذا ليس المعنى الأصلي لهذا اللفظ ؛ لكونه معنوياً ، ولأن هناك دلالة حسية لهذا اللفظ ذكرها أصحاب المعجمات ، وهي أنه يدل على لون بين السواد و الحمرة يعلو الوجه ، فيغير بشرته[42] . ومثل هذا اللون يكون اشد ظهوراً في الوجه الأبيض وأكثر ملازمة له ، فكأن هذا الوجه قد حمل لوناً آخراً غير لونه ، وقد أثر عليه وغيره ، و أرى أن هذا المعنى هو المعنى

الأصلي لهذا اللفظ ، ثم نقلت هذه الدلالة الحسية إلى دلالة معنوية ، هي تحمل المشاق والأعباء ، وتجشم الصعاب ، يقال : فلان يتكلف لإخوانه الكلف و التكاليف ، ويقال : من لم يصبر على الكلف لم يصل إلى الزلف [43] . قال زهير : [44]

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

وقال الممزق العبدي [45] :

أكلفتني أدواء قوم تركتهم وإلا تداركني من البحر أغرق

والمتكلف الذي يتعرض لما لا يعنيه [46] . وكأنه يحمل نفسه تبعات ذلك . قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) : " قل لا أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين " [47] . فلدلالة هذا اللفظ على التحمل و التغيير استعير للدلالة على شدة الحب ، لأن المحب يتحمل المشاق و المتاعب، ويتغير حاله . قال أبو صخر الهذلي[48] :

فتيقني أن قد كلفت بكم ثم افعلي ما شئت عن علم

وقال عمرو بن أبي ربيعة [49] :

فيها ثلاث كالدّمي وكاعب ومسلف

قلت فإني هائم صب بكم مكلف

عشق

العشق عند اللغويين : هو تجاوز حد المحبة [50] .قال الفيروزبادي : " العشق والمعشق ، كمقعد : عجب المحب بمحبوبه ، أو إفراط الحب ، ويكون في عفاف وفي دعارة ، أو عمى الحس عن إدارك عيوبه ، أو مرض وسواس يجلبه إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصورة " [51] . يقال : عَشق يعشَق عِشْقاً وعَشَقاً ، وفلان عشيق فلانة ، وهي عشيقته ، وهؤلاء عُشَّاق وعشاشيق فلانة [52] . وقد ذكر أصحاب المعجمات أن العشقة : شجرة لها ذيول ، وأنها تخضر ثم تدق وتصفرّ [53] . وأرى أن الزمخشري على صواب فيما ذهب إليه من أن اشتقاق العشق من العشقة التي هي اللبلابة [54] ؛ لأنها تلتوي على الشجرة وتلفها بذيولها ولأنها تنحل وتصفر . والعاشق مثلها إن لم ينل مراده من محبوبه . وقد فرق أبو هلال العسكري بين العشق والمحبة إذ قال : " إن العشق شدة الشهوة لنيل المراد من المشوق إذا كان إنساناً ، والعزم على مواقعته عند التمكن منه ، ولو كان العشق مفارقاً للشهوة لجاز أن يكون العاشق خالياً

من أن يشتهي النيل ممن يعشقة ، ولا تسمى شهوته لشرب الخمر وأكل الطيب عشقاً ، والعشق أيضاً هو الشهوة التي إذا أفرطت وامتنع نيل ما يتعلق بها قتلت صاحبها ، ولا يقتل من الشهوات غيرها ، ألا ترى أن أحداً لم يمت من شهوة الخمر و الطعام الطيِّب ، ولا من محبة داره ، أو ماله ، ومات خلق كثير من شهوة الخلوة مع المعشوق والنيل منه " [55] قال المتنبي : [56]

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
يبن لي البدر الذي لا أريده ويخفين بدراً ما إليه سبيل

وقال :

جربت من نار الهوى ماتنطفي نار الغضى وتكل عما يحرق
وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني عيرتهم فلقيت منه مالقوا

شعف

الشَّعَف في اللغة : أعالي الشيء ورأسه . فالشعَفَة : رأس الجبل ، وتجمع على شَعَفات وشَعَف . وشَعَفَة القلب : رأسه عند معلق النياط [57] . والشعف : الفزع الشديد الذي يذهب بالقلب . قال أبو ذؤيب في ثور [58] :

شعف الكلاب الضاريات فؤاده فإذا أرى الصبح المصدَّق يفزع

والمشعوف : الذاهب القلب ، ويقول أهل هَجَرَ للمجنون مشعوف . والشعف شدة الحب ، وقيل إحراق الحب القلب مع لذة يجدها . وقيل ، الشَّعاف : أن يذهب الحب بالقلب [59] . وقد قرئ قوله تعالى : " قد شغفها حباً " [60] بالعين المهملة ، أي تيمها، قال كعب بن زهير [62] :

أنى ألم بك الخيال يطيف ومطافه لك ذكرة وشعوف .

وقد أرجع اللغويون هذه الدلالة المعنوية إلى شعفة القلب ، أي رأسه ، قال ابن فارس : " وشَعَفة القلب : رأسه عند معلَّق النياط ؛ ولذلك يقال : شعفه الحب ، كأنه غشَّى قلبه من فوق "[63] . إلا الأزهري ، فقد أنكر ذلك ، جاء في اللسان : قال الأزهري : ما علمت أحداً جعل للقلب شعفة غير الليث ، و الحب الشديد يتمكن من سواد القلب لا من طرفه" [64] . وهذا ما يقوى احتمال نقل هذه الدلالة عن معنى آخر ، أو أنها قد نقلت عن

المعنيين معاً . فقد جاء في اللسان : " يقال : شعف الهِناء البعير إذا بلغ منه ألمه . وشعفت البعير بالقطران إذا أشعلته به . والشعف : إحراق الحب القلب مع لذة يجدها كما أن البعير إذا هنئ بالقطران يجدله لذة مع حرقة " [65] . قال امرؤ القيس [66] :

أيقتلني أني شعفت فؤادها كما شعف المهنوءة الرجل الطالي

أي أحرقت فؤادها بحبي ، كما أحرق الطالي هذه المهنوءة ، ففؤدها طائر من لذة الهناء ، لأن المهنوءة تجد للهِناء لذة مع حرقة . وهذه الدلالة أكثر توافقا مع ما ذهب إليه الثعالبي من أن الشعف ، هو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها المحب . وأرى أنه قد نقل من هذه الدلالة على سبيل الاستعارة ، وليس عن شعفة القلب .

لـــوع

اللوعة في اللغة : وجع القلب ، وقيل حرقة فيه من مرض ، أوهم ، أو حزن أو حب [67] . يقال : " أتان لاعة الفؤاد إلى جحشها ، قال الأصمعي : أي لائعة الفؤاد ، وهي التي كأنها ولهى من الفزع وأنشد الأعشى [68]

ملمع لاعة الفؤاد إلى جحـــ ـش فلاه عنها فيئس الفالي

وفي حديث ابن مسعود : إنني لأجد له من اللاعة ما أجد لولدي . اللاعة و اللوعة : ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة وشدة الحب " [69] . ويبدو أن هذا المعنى وهو وجع القلب وحرقته ، قد نقل للدلالة على الحب عن طريق المجاز المرسل بعلاقة المسببية ؛ لأنه أطلق المسبب ويراد السبب ، أي أطلق لفظ اللوعة ، وهو مرض القلب ، أو حرقته ، وأريد السبب و هو الحب . قال قيس بن ذريح [70]

ألا ليت لبنى في خلاء تزورني فأشكو إليها لو عنى ثم ترجع

لعـــج

اللعج في اللغة : الحرقة [71] . ويبدو أنه أطلق أولاً على حرقة الجلد ونحوه، جاء في اللسان : " ولعجه الضرب : آلمه ، وأحرق جلده . واللعج : ألم الضر ب وكل محرق " [72] . قال عبد مناف بن ربع الهذلي : [73]

إذا تأوب نوح قامتا معـــــــه ضرباً أليماً بسبت يلعج الجلدا

ثم نقل هذا المعنى إلى الدلالة على حرقة القلب على سبيل الاستعارة ؛ لأن الحزن والهم والحب، قد تحرق القلب كما يحرق السوط الجلد ،ثم استعير للدلالة على الحب على سبيل المجاز المرسل بعلاقة المسببية ؛ لأنه أطلق المسبب وأريد السبب قال الشاعر:[74]

فواكبدا من لاعج الحب والهوى إذا اعتاد نفسي من أميمة عيدها .

شغـف

الشَّغاف في اللغة : غلاف القلب ، وهو جلدة دونه كالحجاب، وقيل : حبة القلب ، أو سويداؤه [75] . وقد استعير هذا اللفظ للدلالة على الحب على سبيل المجاز المرسل بعلاقة المحلية ؛ لأن الحب مكانه القلب . وهو لا يطلق إلا على الحب الذي يصل إلى شغاف القلب . قال أبو عبيدة : " الشغف أن يبلغ الحب شغاف القلب ، وهي جلدة دونه . يقال : شغفه الحب أي بلغ شغافه " [76] قال النابغة [77] :

وقد حال هم دون ذلك داخل دخول الشغاف تبتغيه الأصابع

وقال قيس بن الخطيم [78] :

إني لأهواك غير كاذبة قد شُفَّ منى الأحشاء و الشغف

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات [79] :

يعلم الله أن حبك مني في سواد الفؤاد وسط الشغاف

وقد قرئ قوله تعالى :" قد شغفها حباً " [80] بالغين أي وصل إلى شغاف قلبها [81].

جـوى

الجوي – بالياء – في اللغة : كراهة الشيء . يقال : أجتويت البلاد ، أي كرهتها وإن كنت في نعمة [82] . قال زهير [83] :

نسأْتَ بنيئها وجويت عنها وعندي لو أردت لها دواء

والجَوي : الماء المنتن . و الجوى مقصور : كل داء يأخذ في الباطن لا يستمرأ معه الطعام ، وقيل إنه داء يأخذ في الصدر ، يقال : جَوِيَ جَوَى ، فهو جوٍ وجَوًى ، وصف بالمصدر ، والمرأة يقال لها جَوِيَة [84] . قال الفيروزبادي : " الجوى : هوى باطن ، والحزن ، والماءُ المنتن ، والحرقة ، وشدة الوجد ، والسل ، وتطاول المرض ، وداء في الصدر" [85]. وأرى أن المعنى الأصلي لهذا اللفظ هو الداء الباطن في الإنسان مهما كان ، ثم استعمل للدلالة على الكراهة ؛ لأن الإنسان يكره كل ما يؤلمه ويعكر صفو

حياته ، أما دلالته على الحب فقد استعيرت علي سبيل المجاز المرسل بعلاقة المسببية ؛ لإطلاق المسبب، وهو الجوى ، وإرادة السبب ،وهو الحب ؛ لأن الحب الذي يجاوز الحد ، قد يفعل بالإنسان ما تفعله به الأمراض من آلام وحرقة . قال المتنبي [86]

مالنا كلنا جوٍ يارسول أنا أهوى وقلبك المتبول

تيـم

التيم في اللغة : العبد ، ومنه " تيم الله " أي عبد الله [87] . وقد ذهب كثير من اللغويين إلى أن المتيم هو الذي يستعبده الحب . جاء في اللسان : " التَّيم : أن يستعبده الهوى ، وقد تامته ، ومنه تيم الله . وهو ذهاب العقل من الهوى ، ورجل متيم . وقيل ، التَّيم : ذهاب العقل وفساده "[88] . وقيل إن دلالة هذا اللفظ مأخوذة من التميمة ؛ لأن المحب يعلق بمحبوبه كما تعلق التميمة ، وقيل: إن معنى تيمته : ضللته ، وإن هذا المعنى مأخوذ من التيماء ، وهي المفازة المضلة [89] .

فإذا كانت دلالة هذا اللفظ على الحب قد أخذت من المعنى الأول ، وهو العبادة ، فإنها حينئذ قد نقلت على سبيل الاستعارة ؛ لأن العلاقة بين المعنيين المشابهة ؛ لأن المحب خاضع مطيع لمحبوبه كخضوع العبد وطاعته لسيده . وكذلك إذا كانت قد أخذت من التميمة ؛ لأن المحب يتعلق بمحبوبه ، كما تتعلق التميمة بصاحبها . أما إذا كانت هذه الدلالة قد أخذت من التيماء ، وهي المفازة المضلة المهلكة فإن هذا النقل يكون على سبيل المجاز . قال المنخل اليشكري [90]

يا هند من لمتيم يا هند للعاني الأسير

وقال قيس بن ذريح [91] :

صحا كل ذي لب وكل متيم وقلبي بلبنى ما حييت مروع

تبـل

التبل عند اللغويين : العداوة ، وما تجره من أحقاد وثارات [92] . قال الأعشى [93]:

وعلقتني أخيرى ما تلائمنى فأجمع الحب حباً كله تبل

أي : ثأر. ويقال : " تبلهم الدهر وأتبلهم ، أي أفناهم ، وتبلهم الدهر تبلاً رماهم بصروفه" [94] . قال الأعشى [95] :

أأن رأت رجلاً أعشى أضربه ريب المنون ودهر متبل خبل

وقد أشار اللغويون إلى أن من الدلالات التي يحملها هذا اللفظ ، دلالته على الأخذ وسلب الحق قال الخليل : " التبل : الذحل ، وتبلني فلان ، أي وترني ، وتبلهم الدهر رماهم بصروف الموت "[96]. ومعنى الذحل"طلب مكافأة بجناية جنيت عليك أو عداوة أتيت إليك" [97] . ومعنى وترني فلان ، أي سلبني حقي ، أو امتنع من إعطائي إياه . قال المقدام التميمي [98] :

أبى الله أن الغدر منكم وأنكم بني مالك لا تدركون لكم تبلا

وأرى أن هذا المعنى ، وهو سلب الحق أو أخذه ، والامتناع من إعطائه ، هو المعنى الأصلي لهذا اللفظ ، وهو سبب العداوة ؛ إذ لا يمكن أن تكون عداوة من دون سبب ، وغالباً ما تنشأ العداوات بسبب أخذ الحق ، أو إغماطه ، وعدم الاعتراف به وإعطائه ؛ ولذلك يجب أن يكون هذا المعنى ، هو المعنى الأصلي ؛ لأنه السبب ، والسبب لا يأتي بعد المسبب . وأرى أن دلالة هذا اللفظ على الحب قد أخذت من هذا المعنى .قال ابن فارس : " و التبل غلبة الحب على القلب ، يقال : قلب متبول" [99] أي مأخوذ أو مسلوب ، وليس مصاباً بتبل كما ذكر أصحاب المعجمات ، وهم يفسرون التبل بالحقد والذحل والعداوة ، إذ كيف يحمل قلب المحب لمحبوبه الحقد و العداوة ، وقد أوصله حبه له إلى هذه المرتبة . قال كعب بن زهير [100] .

بانت سعاد فقلب اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

دلـــه

الدلَه في اللغة : يدل على ذهاب الشيء، يقال: دَلَهَ دَمُ فلان دَلْهاً ودَلَهاً أي بُطْلاً [101] ويبدو أنه قد خصص بذهاب الفؤاد ، إذ كثر استعماله في ذلك . يقال : دلهت المرأة على ولدها ، ودُلِّهت إذا فقدته ، أي ذهب فؤادها من الحزن [102] . قال أبو دُاودٍ الإيادي [103] :

بُعرّى دونها وتُقرن بالقيـ ـظ وقد دَلَّه الرباعَ البغامُ

ولدلالة هذا اللفظ على ذهاب العقل أو الفؤاد ، فقد استعير للدلالة على الحب الذي يُذهب عقل المحب . قيل : " و المدلَّه كمعظم : الساهي القلب الذاهب العقل من عشق ونحوه ، أو من لا يحفظ ما فَعَل أو فُعِل به " [104] وهذا من أعلى مراتب الحب ، إذ لم تبق بعده إلا مرتبة واحدة من المراتب التي ذكرها الثعالبي ، وهي مرتبة الهُيام

هيـــم

الهَيْم والهَيَمَان عند اللغويين : العطش الشديد [105] . والهيم : الإبـل العطـاش والهِيم ، وقيل الهَيَام : ما كان من الرمل يابساً دُقاقاً يبتلع الماء. والهيماءَ : مفازة لا ماء فيها.[106] وقيل إن الهُيام وجع يصيب الإبل في أمعائها ، فلا تروى من شـرب المـاء ، فتهيم في الأرض لا ترعوي [107] . قال سهم بن حنظلة الغنوي [108] :

إنَّا نحُسُهمُ بالمشرفي وهم كالهيم تغشى بأيدي الذادة الخُشُبا

وقال تعالى في وصف حال الكفار في جهنم : " فشاربون عليه مـن الحمـيم فـشاربون شرب الهيم " [109] . أي شرب الإبل المصابة بهذا الداء ، فهي لا تروى أبداً . قـال ابـن قتيبة : " والأدواء إذا كانت علي (فعال) أتت بضم الفاء ، مثل القُلاب ... و العُطـاش ، والهُيام " [110]. وأرى أن هذا المعنى الأصلي لهذا اللفظ ، ثم استعير للدلالة علـى شـدة العطش على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السببية ، إذ أطلق السبب ، وهو الهيام ، وأريد المسبب وهو العطش الشديد. ولما كانت الإبل المصابة بهذا الداء تهيم على وجهها بحثـا عن الماء ، لتطفي لهيب هذا الداء في جوفها ،استعير هذا اللفظ للدلالة على شدة الحـب، وكأن المحب يهيم على وجهه في الأرض كما تهيم الإبـل الهـيم . جـاء فـي الزاهـر: " وقولهم (فلان مستهام) قال أبو بكر : فيه قولان، قال قوم :المستهام : الذاهب العقل ، وقالوا هو مشتق من هام الرجل يهيم إذا ذهب على وجهه لذهاب عقلـه . وقـال قـوم : المستهام : العليل القلب الذي يجد في جوفه هياماً ، و الهيام : وجع يجـده البعيـر فـي جوفه ، فلا يروى من شرب الماء ويستعمل ذلك في الناس أيضا " [111] . وأرى أن القول الثاني هو الأكثر صواباً ؛ لأنه قد يكون سبباً في حصول المعنى الأول .

قال أبو دواد الإيادي [112] :

من ينم ليله فقد أعمل الليـــ ـــل وذو البث ساهر مستهام

وقال مالك بن حريم الهمداني [113] :

أهيم بها لم أقض منها لبانة وكنت بها في سالف الدهر موزعا

ويعد الهيام أعلى مراتب الحب ؛ ولذلك كثر استعمال قيس بن الملوح (مجنـون ليلى) لهذا اللفظ ؛ وحبه قد بلغ أعلى مراتب الحب ، كما تذكر كتب الأدب العربي من ذلك قوله [114] :

أفي الحق هذا أن قلبك فارغ وقلبي مما قد أجنَّ يهيـــــم

وقوله : (115)

ألا ليت عيني قد رأت من رآكم لعلي أسلو ساعة من هياميا

وقال : (116)

بي اليوم ما بي من هيام أصابني فإياك عني لا يكن بك مابيا

ونرى من خلال ما سبق أن الألفاظ التي تستعمل للدلالة علـى الحـب ، تختلـف دلالة كل واحد منها عن دلالات الألفاظ الأخر. فكل لفظ يعبر عن مرتبة من مراتب الحب . ونرى أيضاً ، أن دلالات هذه الألفاظ على مراتب الحب قد حصلت نتيجة لتطور دلالي ، إذ انتقلت هذه الدلالات من الدلالات الحسية لتلك الألفاظ ، إما على سبيل الاستعارة ، أو على سبيل المجاز ؛ لعلاقة بين الدلالتين . ورأينا أيضاً أن أغلب الدلالات الحسية لتلك الألفـاظ كانت على الأمراض والأدواء التي تصيب الإنسان والحيوان ، وعلى التلازم بين الـشيئين الحسيين . وهناك ألفاظ أخر تدل على الحب ، لم يذكرها الثعالبي في كتابه (فقـه اللغـة وأسرار العربية) حين ذكر مراتب الحب ، مثل (الصبابة ، والدنف ، والود ، والوجـد ، والغرام ، والوله ، والولوع) وغيرها . وسأتناولها – إن شاء الله – في بحث آخر .

الهـوامـش

1) أبو منصور الثعالبي ، فقه اللغة وأسرار العربية ، شرح وتقديم ، ياسين الأيـوبي ، المكتبـة العصرية ، ط2 ، بيروت ، 1420هـ ، 2000م ص 211 .

2) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ، تحقيق د. مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، انتشارات أسـوه ، ط1 ، قم ، إيران ، 1414هـ ، ج3 ص 31 ، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية . القاهرة . 1306هـ . ج212/2 .

3) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . مقاييس اللغة ، تحقيق ، عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت . 1420هـ 1999م . جـ2 ص26 ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . ط1 ، 1417هـ 1997م . جـ1 ، ص 144 .

4) الأعشى ، ديوان الأعشى الكبير ، شرحه وضبطه ، د محمد أحمد قاسم ، المكتب الإسـلامي ، بيـروت 1994م ، ص64 .

5) الراغب الأصفهاني ، معجم مفردات القرآن الكريم ، تحقيق ، نديم مرعـشلي ، دار الكاتـب العربـي، بيـروت . 1392هـ ـ 1972م ص103 ، 104 .

6) ينظر : مقاييس اللغة : 26/2 ، والقاموس المحيط : 145/1 .

7) أبو سعيد عبد الملك بن قريب (الأصمعي) ، الأصمعيات ، تحقيق ، أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، طبعة بيروت ، ط5 ــ 1383هـ ، 1963م . ص163 .

8) نفسه : 78 .

9) مقاييس اللغة : 26/2 .

10) أحمد الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1424هـ 2003م ، ص151 .

11) ابن منظور المصري ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1997م . جـ2 ص7 ، أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد ، الاشتقاق ، تحقيق ، عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، د ت ، ص38 .

12) لسان العرب : 7/3 .

13) ابن الدمينة ، ديوان ابن الدمينة . صنعة أبي العباس ثعلب ، ومحمد بن حبيب ، تحقيق أحمد راتب النفاخ ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر ، د ت ص110 .

14) أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، طبعة وحققه ، حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ، ص99 .

15) ينظر : مقاييس اللغة : 15/6 ، والقاموس المحيط : 1764/2 .

16) امرؤ القيس ، ديوان امرؤ القيس ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1404هـ 1983م . ص77 .

17) ينظر : مقاييس اللغة : 15/6 ، والقاموس المحيط : 1764/2 .

18) سورة إبراهيم آية 43 .

19) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف ، تحقيق، عبدالرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ط2 ، 1421هـ 2001م جـ2 ص 528 .

20) ينظر : مقاييس اللغة : 15/6 .

21) ينظر : العين : 1910/3 ، والقاموس المحيط : 1764/2 .

22) ينظر : مقاييس اللغة : 16/6 .

23) غيلان بن عقبة العدوي ، ديوان شعر ذي الرمة ، تحقيق ، زهير فتح الله ، دار صادر ط1 . بيروت 1995م ، ص497 .

24) ينظر : مقاييس اللغة : 16/6 – 17 .

25) سورة النجم آية 3 .

26) سورة الجاثية آية 23 .

27) سورة النازعات آية 40 .

28) ينظر : الكشاف : 698/4 .

29) الفروق اللغوية : 98 ، 101 .

30) ينظر : العين : 1270/2 ، ومقاييس اللغة : 125/2 ، 126 .

31) العين : 2/ 1269 .

32) العين : 2/ 1270 ، ومقاييس اللغة : 4/ 126 ، وأساس البلاغة : 312 ، وقد جاء البيت في ديوان جرير برواية أخرى هي :

إذا علقت حبالك حبل عاص رأي العاصي من الأجل اقترابا

بأن السيـف ليـس له مرد إذ أفرى عـن الرئة الحجابا

ديوان جرير ، شرح د. يوسف عيد ، دار الجيد ، ط 1 ، بيروت ، ص 30 .

33) ينظر : العين : 1269/2 ، ومقاييس اللغة : 126/4 ، والقاموس المحيط : 1207/2 ــ 1208 .

34) العين : 1269/2 .

35) ينظر العين : 1270/2 ، ومقاييس اللغة : 126/4 .

36) شرح المعلقات العشر ص204 ، 205 .

37) نفسه : 15 .

38) سورة النساء ، آية 129 .

39) ينظر : الكشاف : 606/1 .

40) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق ، عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، 1402هـ 1982م . ص312 .

41) ينظر : العين : 1591/3 ، ومقاييس اللغة : 136/5 .

42) ينظر : مقاييس اللغة : 136/5 ، والقاموس المحيط : 1132/2 .

43) ينظر : العين : 1591/3 ، والقاموس المحيط : 1132/2 .

44) شرح المعلقات : 86 .

45) الأصمعيات : 166 .

46) ينظر : العين : 1591/3 ، ومقاييس اللغة ، 136/5 ، وأساس البلاغة : 397 .

47) سورة : ص آية : 86 .

48) أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، الزاهر في معاني كلمات الناس ، تحقيـق د ، حـاتم صـالح الـضامن ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط2 ، بغداد ، 1987م جـ1 / 585 .

49) عمرو بن أبي ربيعة ، ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تحقيق ، محمد محي الدين عبدالمجيد ، مطبعة السعادة، مصر، 1960 ص461 .

50) ينظر : مقاييس اللغة : 321/4 ، والقاموس المحيط : 1206/2 .

51) القاموس المحيط : 1206/2 .

52) ينظر : العين : 1209/2 ، ومقاييس اللغة : 321/4 .

53) ينظر : مقاييس اللغة : 321/4 ، والقاموس المحيط : 1206/2 .

54) ينظر : أساس البلاغة : 302 .

55) الفروق اللغوية : 99 ، 100 .

56) أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيـب المتنبـي ، شـرح ناصـيف اليازجي، دار القلم ، بيروت ط2 ، 1887م ص 369 ، ص 23 .

57) ينظر : العين : 924/2 ، ومقاييس اللغة : 189/3 .

58) لسان العرب : 446/3 .

59) ينظر السابق : 446/3 .

60) سورة يوسف ، آية 30 .

61) ينظر : الكشاف : 2/ 436 .

62) كعب بن زهير ، ديوان كعب بن زهير – تحقيق وشرح ، د. محمد يوسف نجـم ، دار صـادر ، ط1 ، بيـروت ، 1415 هـ 1995 م ، ص 58 .

63) مقاييس اللغة : 3 / 189 ، وينظر : أساس البلاغة : 237 ، والقاموس المحيط : 2/ 1099.

64) لسان العرب : 3/ 446.

65) نفسه : 3/ 446.

66) ديوان امرؤ القيس : 142.

67) ينظر : العين : 3/ 1663 ، والقاموس المحيط : 2/ 1021.

68) لسان العرب : 5/ 536.

69) نفسه : 5/ 536 .

70) قيس بن ذريح، ديوان العذريين ،شرح ، د . يوسف عيد، دار الجبل ط 1 بيروت، 1413 هـ1992م ، ص386.

71) ينظر : مقاييس اللغة : 5 / 254 ، وأساس البلاغة : 419 ، و القاموس المحيط : 1/ 314 .

72) لسان العرب : 5/ 503 .

73) مقاييس اللغة : 5/ 254 ، ولسان العرب : 5/ 503 .

74) العين : 3 / 1640 .

75) ينظر : السابق : 2/ 926 ، ومقاييس اللغة : 3/ 195 ، وأساس البلاغة : 237 .

76) لسان العرب : 3/ 449 .

77) النابغة الذبياني ، ديوانه ، تحقيق وشرح ، كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، د. ت ص 79 .

78) الأصمعيات : 198 .

79) عبيد الله بن قيس الرقيات ، ديوان عبيد بن قيس الرقيات ، تحقيق ، محمد يوسف نجـم دار صـادر، بيـروت، 1958 ص 37 .

80) سورة يوسف ، آية 30.

81) ينظر : الكشاف : 2/ 436 .

82) ينظر : مقاييس اللغة : 1/ 491 ، ولسان العرب : 1 م 493 .

83) العين : 1/ 331، ومقاييس اللغة : 1/ 491 ، ولسان العرب : 1 / 493 ، وقد جاء البيت في ديوان زهير برواية أخرى هي :

غصصت بنيئها فبشمت عنها وعندك لو أردت لها دواء

ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار صادر ، بيروت ، د . ت ، ص 14 .

84) ينظر : العين : 1/ 331 ، ولسان العرب : 1/ 493 .

85) القاموس المحيط : 2/ 1669 .

86) ديوان المتنبي : 446.

87) ينظر : مقاييس اللغة : 361/1 ، والقاموس المحيط : 2/ 1429 .

88) لسان العرب : 1/ 320.

89) ينظر : أساس البلاغة : 41 ، ولسان العرب : 1/ 320.

90) الأصمعيات : 61 .

91) ديوان العذريين : 386 .

92) ينظر : مقاييس اللغة 1/ 363 ، ولسان العرب : 1/ 294 .
93) شرح المعلقات : 205 .
94) لسان العرب : 1/ 294 .
95) شرح المعلقات : 206 .
96) العين : 1/ 215.
97) نفسه : 1/ 618 .
98) أساس البلاغة : 36 .
99) مقاييس اللغة : 1/ 363 .
100)ديوان كعب بن زهير : 84.
101)ينظر : مقاييس اللغة : 2/ 293 ، وأساس البلاغة : 135 .
102)ينظر : العين : 1/ 591 ،وأساس البلاغة : 135 .
103)الأصمعيات : 189 .
104)القاموس المحيط : 2/ 1635
105)ينظر : العين : 3/ 1915 ، والقاموس المحيط : 2/ 1542 .
106)ينظر : العين : 3/ 1915 ، ومقاييس اللغة : 6/ 26 .
107)ينظر : الزاهر في معاني كلمات الناس : 1/ 252 ، ومقاييس اللغة : 6/ 26 .
108)الأصمعيات : 56 .
109)سورة الواقعة ، آية 55 .
110)أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة – أدب الكاتب – دار صادر ، بيروت – د. ت ص 605 .
111)الزاهر في معاني الكلمات الناس : 1/ 251 – 252 .
112)الأصمعيات : 185 .
113)نفسه : 63 .
114)ديوان العذريين : 118 .
115)نفسه : 137 .
116)نفسه : 144 .